أسئلة في هامشية الموت وشعرية المفردة

الشاعر انمار مردان

في مجموعته البكر «متى يكون الموت هامشيا «الصادرة عن دار الفرات لسنة 2017 م يطرح الشاعر الشاب أنمار مردان سؤالا غاية في التعبيرية والعمق التأويلي والذي ينفتح على مختلف التأويلات، منها حين يكون وجودنا المعذب في هذا الكون لا طائل من وراءه وهذا مبدأ من مبادئ الرفض والاحتجاج الصارخ، فمتى يكون الموت هامشيا بحاجة لوضح مبررات هامشيته وأنه لا يشكل معضلة ولا هو نقطة النهاية، وثمة تأويل آخر فقد يكون بداية لصيرورة أخرى قدرها الشاعر من خلال قراءاته المتعددة عن جدلية الموت، وربما اطلع على ايمانات الديانات العتيقة التي اعتبرت الموت عملية للتحول إلى عالم آخر يحلق أو يبحر فيه الإنسان إلى حيث الأمان والاستقرار والراحة الأبدية، وتلك كانت معتقدات الفراعنة في النظرة إلى الموت بأنه الإبحار والسفر لذلك كانوا يهيئون لمواتاهم أدوات ذلك الإبحار ومعداته الضرورية.

وما دام علم العنونة يتطلب إيجاد علاقة غير منظورة بين العنونة والمتن الشعري فلابد من التوقف أولا عند هذه العلاقة وهل تحقق التوازن بين المتغيرين.

ذهب جاكبسون في قضية العنونة إلى أنه يفترض أن مرسلاً معيناً يبعث برسالة إلى شخص ما نطلق عليه المرسل اليه ولا بد ان تفتح هذه الرسالة ببادئ أولي يشكله العنوان وهو ما يطلق عليه بالمرجع على سياق يدركه المرسل إليه وهو أما يكون لفظياً أو قابلاً لأن يكون لفظيا وتقتضي الرسالة بعد ذلك سننا مشتركة بين المرسل والمرسل إليه ... وقد نجح الشاعر بدءاً بجلب انتباه المتلقي فقد انطوى العنوان على سؤال غاية في الخطورة .

يفتتح مردان أو نصوص المجموعة بمفارقة من حيث المعنى يقول:

«بعد حذفي أخضرُ/ ارتشف أعين الرصيف / أحمل سجادة السماء وسادة «ص5

المفارقة التصويريّة فنٌّ يستخدمه الشاعر المعاصر لإبراز التناقض بين طرفين متقابلين، بينهما نوع من التناقض؛ وتشمل تعريفات؛ الأوّل: مثل أن يقول المرء عكس ما يعنى، الثانى: الهزء، الثالث: السخريّة. المفارقة التصويريّة تقنيّة مختلفة تمامًا عن الطباق والمقابلة، سواء من ناحية بنائه الفنّيّ، أو من ناحية وظيفته الإيحائية، وذلك لأنَّ المفارقة

التصويريّة تقوم على إبراز التناقض بين طرفيها؛ هذا التناقض الّذى قد يمتدّ ليشتمل على القصيدة بِرُمَّتها. وتنقسم إلى قسمين رئيسيّين يصعب الفصل بينهما؛ المفارقة اللفظيّة ومفارقة الموقف وهو التضاد بين المظهر والمخبر من عناصرها البارزة. المفارقة التصويريّة تعتبر إحدى المقومات التي يعتمدها مردان في معظم نصوص المجموعة كما سنشير لمواضعها إن كانت لفظية أو معنوية «ارتشف أعين الرصيف» و«أحمل سجادة السماء وسادة» .

المعنى غير مألوف فلا للرصيف أعين ولا للسماء وسادة وهو الخروج عن وظيفة اللفظ وحدود معناه المطابق . وعليه فأن الشاعر يوظّف هذا العنصر الفنّى لإبراز أفكاره وعواطفه، ويصف أثناءها، الذاتي الذي ينسحب فيما بعد على الموضوعي.

يقول مردان في نص آخر:

من يقوم بتدوين هذه الغربة المتيقظة؟

لا تعبثوا بالأمكنة

ولا تفركوا رؤوسكم بالحبال

فالغد علامة خربة في عيون الأمهات ...

ويحاول مداعبة شجرة

كانت تلبس قبرها على ... عجل ص41

ثمة مفارقة من خلال التلاعب باللفظ والمعنى معاً، وهذه المفارقة قائمة على تظاهر الشاعر بكونه خلاف ما يكتبه على الورق أو هو يعني غير ما كتب فصاحب المفارقة قد يقول شيئاً لكنَّه يعني آخر من حيث المعنى القريب.

لقد ذهب الجرجانى (471 هـ) إلى القول بـ «معنى المعنى» من خلال الكلام ضربين؛ لمعنى، ومعنى المعنى؛ فالمعنى هو المفهوم من ظاهر اللفظ، ونصل إليه بغير واسطة، وأمّا معنى المعنى فهو أن وإنّ السامع يعقل معنى . تعقل من اللفظ معنى، ثمّ يفضى بك ذاك المعنى إلى معنى أخر من الظاهر على سبيل الاستدلال، إذ يمكن قول شيء ما، ويقصد به معناه، وذلك من أثناء أنَّ المتكلّم يكون للمنطوق عنده معنى، وللجملة معنى من أثناء الاستعارة والمفارقة، الحقيقة أن الشاعر نجح إلى إيجاد نوع من تحفيز ذهنية المتلقي ليبحث في ما وراء القول الظاهر في النص «لا تعبثوا بالأمكنة «أي أمكنة يقصد الشاعر وهو يتحدث اجابة لسؤال كبير «متى يكون الموت هامشيا؟» و«الشجرة تلبس قبرها» أي شجرة هل هي الحياة تتلبد وتتعكر وكأنها ميت يساق لمثواه؟ هل الشجرة الحبيبة التي انطفأت شرارة حبها في القلب فكأنها ماتت في قلبه؟ وأسئلة كثيرة جميعها تستقصي المعنى الحقيقي للجملة الشعرية .

يقول انمار:

الفراشات معصوبة الطيران

النظر يصبح وسيلة بليدة

الاختباء في نهرك انتصار على الموت

السفر في فمك بلا أميال

قنبلة تلحس التوقيت ... ص46

في المقطع أعلاه تصوير ينتمي للبديع وترجع أصول هذا الأسلوب إلى البلاغة العربيّة الّتى انصبّ اهتمامها على لون من التصوير البديعىّ القائم على مبدأ متضادّ سواء أكان فى شكله البسيط «الطباق» أم فى المفارقة التصويريّة صورته المركّبة «المقابلة» ومن المعلوم أنَّ هذا المبدأ يقوم على الجمع بين المتضادّات اللفظيّة فى بيت أو عبارة ويشتمل على تناقض واقعىّ بين أجزاء المفارقة.

ويرى د.سى.ميوك وهو من أهمّ دارسى المفارقة – أنَّه لا يوجد تحديد واضح للمفارقة، ولا توجد قائمة تحتوى على تقنيّات المفارقة وطرق استخدامها بل أن الشاعر هو الذي يصنعها من خلال دقة في التصوير الذي يستند على المفارقة حتى في الصورة الشعرية .

«السفر في فمك» و«الاختباء في نهرك» و«قنبلة تلحس التوقيت» هي جمل دالة على مفارقة وتضاد «السفر ... الفم» جعل فمها العالم

الذي من خلاله يسافر ليس جسدا بل هو السفر المعنوي، «الاختباء ... نهرك» النهر بطبيعته دالة الغرق فكيف يختبئ إذن هو المعنى المتضاد للحقيقة التي عليها النهر ... وهكذا يستثمر الشاعر انمار مردان قدراته التخيلية للتصوير المعبّر عن المفارقة بشقيها اللفظي والمعنوي .